﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن أوتيَ القرآنَ كان لِزامًا عليه أن ينشرَه بين النّاس، ويبيّنَ معانيه

لمّا أخبر اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أنّه هو النّذير المبين، وأخبره أنّه تعالى سيسأل كلَّ واحد عمّا عمل؛ فرَّع عليه الأمرَ بالصّدع بما يُؤمرُ، وأن يعلن ذلك لكلِّ أحدٍ، وألّا يلتفت إلى قول المشركين واستهزائِهم.

ولمّا قال اللّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]، وأفادَ الكلامُ بِصَريحِهِ وكِنايَتِهِ التَّسْلِيَةَ عمّا يُلاقيهِ مِنْ تَكْذيبِ قَوْمِهِ؛ فرَّع عليه هذه الآيةَ، فمن أوتيَ سبعًا مِنَ المثاني والقرآن العظيم، فليس له إلّا الجهرُ بها وإعلانُها للنّاس[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾: يدور الصّدعُ على معنى ظهور ما كان غيرَ مُبانٍ، بانفراجٍ في المَصدوعِ والتّأثيرِ فيه بقوَّةٍ، وأصل الصّدع هو الشّقّ في الأجسام الصّلبة كالأرضِ، يقالُ: صدعَ الزّجاجَ، أي: كَسَره، فإذا انشقَّ الشّيءُ بالصَّدعِ ظهر ما كان غيرَ مبانٍ، وفيه معنى الفصلِ والفَرْق؛ لأنَّ الشّقَّ يَفْصِل بين الطّرفين، ويقعُ به الإظهارُ، ومنه: تصدَّعَ القومُ، أي: تفرَّقوا، يقال: صَدَعْتُهُ فانْصَدَعَ، وصَدَّعْتُهُ فتَصَدَّعَ، وسُمّيَ الصُّبْحُ صَديعًا لظهورِه، واستُعيرَ مِنَ الصَّدعِ الصُّداعُ، وهو شِبهُ الانشقاقِ في الرّأس، مِنَ الوجع والألمِ[2]، و﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ هنا بمعنى: أظْهِرْ واجْهَرْ[3].

2) ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾: يدور معنى الكلمةِ على اتّساع ما يواجِهُ النّاظرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/87.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدع).

(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 240.

مِنَ الشَّيءِ الكثيف، فمِن ذلك: العارضُ، وهو السَّحابُ، وعُرْضُ الشَّيءِ: ناحيتُه، وإذا قيل: أَعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، بمعنى: أنّه انحرفَ عنه وولّاهُ عَرْضَه، أي: أخَذَ جانِبًا غَيْرَ الجانِبِ الَّذي هو فيه، فالإعراضُ هو أن تولّيَ الشَّيءَ عَرْضَكَ، أي: جانِبَك، ولا تُقبِل عَلَيْهِ، بقصدِ عدم الالتفات إليه، ويلزمه عدمُ المبالاةِ به(1).

المَعْنى الإجْماليُّ:

أهميَّةُ الجَهْرِ بالحَقِّ وإظهارِ الدّين، وعدمُ المبالاة بالمُثبِّطين والمُبْطِلين

أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ في هذه الآية بتبليغ رسالته قومَه، وجميعَ مَن أُرسل إليه، وأن يمضيَ بما يُؤمر في تبليغ الرّسالة، فقال له ما معناه: بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، واجهرْ بدعوة الحَقّ التي أمرك اللّهُ بها، ولا تَلْتَفِتْ لأقوال المشركين، ولا تُبالِ بهم إذا لاموكَ على إظهارِ الدَّعوةِ، ولا يمنعْكَ شيءٌ مِن تبليغِ الرّسالة(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة الفاء في قولِه: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾:

ما دام اللهُ تعالى قد تولَّى أمرَ المكذّبين، فلِمَ التّقاعسُ عن تبليغ القرآن المبين؟

تُفيد الفاءُ ترتُّبَ الأمرِ بالصّدع على ما قبلَه، بمعنى: إذا كان الّذي تولّى أمرَ سؤالِ المُكذّبين يومَ القيامة ومجازاتِهم على أعمالِهم هو اللّهُ تعالى، فاصدعْ بما تؤمَرُ ولا تلتفت إليهم، ويحتمل أن تكون الفاءُ تفريعًا على جملة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ وما بعدَها، ليكون الإتيانُ المَذكور وما جاء بعدَه من كونِه ﷺ نذيرًا مبينًا للنّاس أجمعين، سببًا للأمر بالجهر بالقرآن والإعراض عنِ المشركين.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾:

أُمِر رسولُ اللّهِ ﷺ في هذِه الآية بإظهار الدّعوة، وجاء الكلام على الاستعارة، بتشبيه تبليغ الدّعوة والجهرِ بها وإعلانِها بالصّدع

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عرض).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/551.

تبليغُ القرآنِ كظُهورِ الفجر الصّادق، الّذي يَشُقُّ ظلامَ اللّيل المُطبق

في الأرض، وقُصِد به لازمُه، وهو ظُهورُ الأمرِ المَحْجوبِ وراءَ الشَّيْءِ المُنْصَدِع، ليكون الكلامُ على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، ووجهُ الشّبه: الظّهور بعد الخفاء، فهو مِثْلُ ظهورِ الفجرِ الصّادق، يَشُقُّ ظلامَ اللّيل البَهيم، أو تكون الاستعارةُ بتشبيه تبليغِ الدّعوة والإعلانِ بها بصَدْعِ الزُّجاجَة، ووجهُ الشّبه: الظّهورُ والنّفاذُ والتّأثير، ثُمّ حُذِف المُشَبَّهُ وذُكِر المُشَبَّهُ به على طريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة كذلك، وحقيقةُ الكلام: فبَلِّغْ ما تُؤْمَرُ به، أو فأظْهِرْ ما تُؤْمَرُ به، والاستعارة هنا أبلغ مِنَ الحقيقة؛ لأنَّ الصّدع بالأمر يكون له تأثيرٌ ونفاذٌ في النّفوس والقلوب، كتأثير صَدع الزُّجاجة، أو كتأثير شَقِّ الأرضِ وظهورِ ما كان خافيًا فيها، وفيه إيذانٌ بأنَّ ما تُؤْمَرُ به حُجَّةٌ على المُخاطَبين، والمرادُ الاجتهاد والمبالغةُ في حُسن تبليغ الأمر والحِرص عليه وإظهارِه، بحيثُ يكون مكشوفًا مَجهورًا به، وتقومُ به الحُجَّةُ، كظُهور الفجرِ الصّادق في ظَلام اللّيل، وينقطعُ به العُذْرُ، ويؤَثِّرُ في النّفس التّأثيرَ الذي يقع معه العِلْمُ بصحّتِه[1].

سببُ إيثارِ التّعبير بـ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ دون (فَبَلِّغ):

الصّدعُ بالقرآن حُجّةٌ على النّاس في كلّ زمان

لمّا كان الصّدعُ فيه معنى التّصريح بالأمر؛ لمُلازمته معنى الظّهور، ويلزمُه الجَهْرُ بالمُصَرَّح به، وفيه معنى الفَرقِ والفَصلِ أيضًا، فيَحْصُل بالصّدع بالقرآنِ الفَصْلُ بينَ الحَقِّ والباطل؛ كان التّعبيرُ بـ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ أبلغَ مِن (فَبَلِّغ) وإن كان بمعناه؛ لأنّ تأثير الصّدعِ أبلغُ مِن تأثير التّبليغ، فقد لا يُؤَثّر التّبليغُ، والصّدْعُ يُؤَثّر جزمًا[2]، ولو قال: (فَبَلِّغ بما تُؤْمَر به)، لما أفاد المعنى المقصودَ مِنَ الظّهور والتّصريحِ والجَهْر به، وإن كان يجتمع مع ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ في

(1) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 87، والخطابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 44، والباقلانيّ، الانتصار للقرآن: 2/451، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/88.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 3/152.

معنى الإيصال، بيدَ أنَّ التّبليغ قد يَصْعُب حتّى لا يكونَ له تأثيرٌ، فيَصيرَ بمنزلة ما لم يقع، والإيصالُ الذي له تأثير كصَدْع الزُّجاجَة أبلغُ، كما أنَّ في تَعَلّق الأمرِ بالصّدع بقولِه: ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ يُفيد أنَّ ما أمرَ به رسولُ اللّهِ ﷺ حُجّةٌ على الآخرين كما تقدَّم، فإنَّه يقالُ: صَدَعَ بالحُجَّة، إذا تكلَّم بها جِهارًا[1].

فائدةُ الباء في قوله: ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾:

الصّدعُ بالقرآن، لا يكون من غير جَهْرٍ به وإعلان

الباء هنا للمُلابسة، ولمّا كان الفعل ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ يتعدّى بنفسِه، دَلَّ مَجيءُ الباء على تضمينه معنى الجَهْر، فالباء مِن صِلةِ معنى الصَّدعِ، لا لفظِه، والمعنى: فاصْدَعْ واجْهَرْ بما تُؤْمَرُ به، بحيثُ يكون ما تُؤمرُ به مُلابسًا لِصَدْعِك، فيلزَمُ مِنَ الجَهْر بالقرآن إعلانُه وبيانُه.

دلالة (ما) بين المَصدريّة والموصوليّة:

شرائعُ الإسلام كلُّها مودعةٌ في القرآن، رجاءَ أن ينتفع بها الإنسان

تحتمل (ما) أن تكون بمعنى: (الذي)، وهو الظّاهر عند أكثر المُفسّرين وأهلِ المعاني، والتّقديرُ: فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ به مِنَ الشّرائع المودَعة في تضاعيف ما أوتيتَه مِنَ المَثاني السّبعِ والقرآنِ العظيم، فحَذفَ الجّارَّ ثمّ حذفَ الضّميرَ، وهو الهاءُ؛ لطول الاسم بالصّلة، وأفاد الحذفُ الإيجازَ والمبالغةَ في المعنى كما سيأتي، وتحتمل (ما) أن تكون مصدريّة، فيكون التّقدير: فاصْدَعْ بالأمر، أو فاصْدَعْ بمأموريَّتِكَ، أي: بما أنتَ عليه مِن كونكَ مأمورًا بتبليغ رسالتِكَ، وبتبليغ القرآنِ الذي نزلَ عليك[2].

نُكْتَةُ التّعبير بـ﴿بِمَا﴾ دونَ (الّذي):

(ما) الموصولةُ أكثرُ عمومًا مِن (الّذي)، وهي آثَرُ هنا في الاستعمال

على القول بأنَّ (ما) موصولةٌ، عُبِّر بـ﴿بِمَا﴾ دونَ (الذي)؛ لأنَّها أكثرُ عمومًا، والمقامُ يقتضيه.

---

(1) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 87، والخطابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 44، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/590، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/217.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/94، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/671.

نُكْتَةُ التَّعبير بلفظِ ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾:

الصَّدْعُ يَشمَلُ القرآنَ وكلَّ ما أعلنَه رسولُ اللهِ ﷺ للنّاس

عُبِّر بلفظِ ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الصّدعَ يشمل القرآنَ، وكلَّ ما يعلنه النّبيُّ ﷺ ويجهر به بينَ النّاس، مِن إنذارٍ وتبليغ وغيرِهما، فكأنّه يُشير إلى وجوب الأخذِ بجميع ما يقولُه رسولُ اللّه ﷺ مِنَ القرآن وغيرِه.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تُؤۡمَرُ﴾:

تَجَدُّدُ الصّدعِ بالأوامرِ، تقتضيه متطلّباتُ المغالبةِ والمواجهة

لم يقل: (بما أُمِرتَ)؛ للإشعار بتَجَدُّد نزولِ أوامرِ القرآنِ على رسول اللّه ﷺ واستمرارها، فالسّورة مَكّيَّةٌ.

بلاغةُ حَذفِ العائد في قوله: ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾:

حَذِفُ العائدُ للإيجاز ولإفادة العموم

على القول بأنَّ (ما) موصولةٌ، يكون العائدُ إلى الاسم الموصول محذوفًا للعِلْم به، والتّقديرُ: (فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ به)، ونُكْتَةُ الحَذفِ: شمولُ الأمرِ كُلَّ ما أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بِتَبْلِيغِه، فلَم يَقُل: فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِه، أو بِالأمرِ بِه، أو بِالدَّعْوةِ إلَيْه، وهو إيجازٌ بَديعٌ لإفادة المبالغة في التّعميم[1].

دلالةُ التّعبير بصيغة المبني للمفعول ﴿تُؤۡمَرُ﴾:

كلُّ ما جَهَرَ به رسولُ الله ﷺ، فهو ممّا أمرَهُ اللهُ تعالى به

لـمّا كان السّياقُ في تسليَة رسولِ اللّهِ ﷺ، لم يكن مِنَ المناسب هنا أن يُقال: (بما أمَركَ اللّهُ) على التّصريح بالأمر؛ لُطفًا برسولِ اللّه ﷺ، ولـمّا كان الائتمارُ بأمر اللّه هو شأن رسولِ اللّه ﷺ، دَلَّ على أنَّه ﷺ قد صَدعَ بكلِّ ما أُمِرَ به، ويفيدُ بلازمه أنَّ كلَّ ما جَهَر به رسولُ اللّهِ ﷺ وأبانَه وصرّح به؛ هو ممّا أمَرَهُ اللّهُ تعالى به، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: 3 - 4].

بلاغةُ الإيجاز:

براعةُ الإيجاز في اشتمال أربعِ كلماتٍ على جميع ما في الرّسالة المُحَمّديّة

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾، اشْتَمَلَتْ هذه الكلمات على

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/88.

وجازتِها، على جَميعِ ما في رسالةِ سيّدنا محمَّدٍ ﷺ، فالكلامُ مِن براعة الإيجاز وبلاغتِه[1]، ولهذا ذكر أبو عُبيدةَ عن رُؤبةَ قولَه: "ما في القرآن أعْرَبُ مِن قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾"[2].

مناسبة الوصل في قولِه: ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾:

التّصدّي لمقولاتِ المُكذّبين قد يُعيقُ إظهارَ الحَقِّ وإتمامَه

لمّا جاء الفعلُ ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ على الأمر، عطفَ عليه فعلَ الأمرِ ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾؛ ليكونَ مِن عطف الطّلبِ على الطّلبِ، وفائدةُ العطفِ: الإشعارُ بأنَّ الإعراض عنهم يُحَقّقُ الصّدعَ بالحَقِّ ويُتِمُّه على أكمل وجهٍ، وأنَّ الانشغال بالرَّدّ على المشركين والتّصدّي لهم، يُعيق إظهارَ الحَقِّ وإتمامَه.

بلاغةُ حَذفِ متعلَّق الفعل:

المؤمنُ يُعرِضُ عن كلِّ ما يكون سببًا في مَنْعِ تبليغ القرآنِ للنّاس

في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، لمّا كان الإعراضُ عن المشركين لا يُقصَد به الإعراضُ عن ذواتِهم، والابتعاد عنهم؛ لأنَّ النّبيّ ﷺ مأمور بالصّدع بالدّعوة والجَهْرِ بها، وكان ظاهرُ قَولِه تعالَى: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ مانِعًا مِنْ ذَلِكَ؛ دلَّ على أنَّ ثَمّةَ محذوفًا يتعلَّق به الإعراضُ، والمعنى: أعرض عن أقوال المشركين ولومِهم حين تَظْهَرُ الدَّعوةُ، وأعرِضْ عنِ التّصدّي لهم بالانتقام، فيدخلُ فيه الإعراضُ عن كلِّ ما يكون سببًا في مَنْعِ تبليغِ الدّعوة وإظهارِها أو تعويقِها[3]، فيكون الحَذْفُ لإفادة العموم، ولمّا كانَ تعليق الحُكم على المُشْتَقِّ يُؤْذِنُ بعِلّيَّة المَأْخَذِ؛ كانت نُكْتَةُ تعليقِ الإعراضِ بالمشركين هي الإشعارَ بأنَّ الإعراضَ عنهم هو بسبب شركِهم باللّه تعالى، وأنَّ شركَهم هو الّذي يدفعُهم إلى مَنْعِ تبليغ الدّعوة.

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/226.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 4/155.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

بلاغةُ الكناية:

المؤمنُ مأمورٌ بالصّدع بالقرآن، وليس بالانتقام مِنَ المشركين

يحتمل أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ من باب الكناية؛ فإنَّه لمّا كان معنى قولِهم: (أعرَضَ عنه)، هو ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، وتَنَحّى جانبًا، كان المرادُ مِنَ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لازمَه، أي: لا تلتفت إلى ما يقولون، ولا تبالِ بهم، ولا يكن شِرْكُهم صادًّا لك عن تبليغ القرآنِ والجَهْرِ به، ولا تتصَدَّ للانتقام منهم، فأنتَ مأمورٌ بالصّدع بالقرآن، وليس بالانتقام مِنَ المشركين.